

# المؤتلف والمختلف في الفضاء الاتصالي المغربي

فايزة يخلف<sup>(1)</sup>

## مقدمة

يقودنا الحديث عن الفضاء الاتصالي المغربي إلى التنويه بأهمية الاتصال في فهم معنى الفضاء العمومي Espace Public، هذا الفضاء الذي أضحي من المفاهيم الملازمة للعقلانية التواصلية، وقد انشغل به هابرماس طيلة مساره الفكري، وهو المكون القيمي الذي أسس لنظريات أمبريقية أكثر طموحا ومقاربات علمية لم تتوقف على الاشتغال بقضايا الحقيقة ومسائل المعيارية والتقويم.

إنّ الاتصال حاجة إنسانية أولية وليست مضافا عرضيا يمكن الاستغناء عنه، إنه ليس اختيارا بل إكراه اجتماعي يتعلم الفرد من خلاله كيف يتأقلم مع قوانين المجتمع ومقتضياته. فكما أنه لا يمكن الحديث عن الإنسانية إلا من خلال وجود مجتمع كما يقول أمبرتو إيكو (Umberto Eco) فإنّ الحديث عن المجتمع لا يمكن أن يتم دون الحديث عن نشاط اتصالي يمكّن الأفراد والجماعات من إشباع حاجات لا يمكن أن تشبع اعتمادا على مجهودات الفرد وحده. وقد ذهب البعض إلى الاعتقاد أنّ الاتصال والأخلاق ومجمل الإكراهات التي صاحبت الارتقاء الإنساني من حالات "التوحش الطبيعي" إلى ملكوت العوالم الرمزية كلها أنشطة تحققت من خلال سيرورة واحدة، حيث يندرج الفعل الإنساني في كليته ضمن سجلات متباينة في التجلي، ولكنها متطابقة مع بعضها بعضا من حي المضمون، فهي ما يشكّل في نهاية الأمر إنسانية الإنسان، وذاك هو السر في أنّ يكون الإنسان كائنا متصلا. ولذلك فالإتصال، شأنه شأن الأخلاق، ليس نشاطا فرديا لا يدرك إلا ضمن حاجات الفرد المعزولة، بل هو سيرورة اجتماعية تعتمد سلسلة لا حصر لها ولا عدّ من الأنساق التي

<sup>(1)</sup> Université d'Alger 2, Bouzareah, 16000, Alger, Algérie.

تختلف في التحقق من ثقافة إلى أخرى، ولكنها تعدّ في الجوهر تعبيراً عن مضامين إنسانية واحدة، إنّه التعرف على العوالم الأخلاقية للآخر، وإدراك خصوصياتها رغبة في تفسير رد فعله لا يمكن أن يتمّ إلاّ من خلال حالات التبادل. يشتمل هذا التبادل على أشكال متنوعة فيها ما ينتمي إلى دوائر اللفظ (الاتصال المنطوق)، ومنها ما ينتمي إلى تقنيات وسلطة الصورة (الاتصال البصري)، وفيها الحاجات الاقتصادية وكل الأشكال التعبيرية التي أفلح الإنسان في إنتاجها.

وعلى هذا الأساس، فإنّ الظواهر الإنسانية في كليتها لا يمكن أن توجد خارج رغبة الكائن البشري في التواصل مع غيره بشكل مباشر أو غير مباشر، فمجموع ما ينتجه الإنسان عبر لغته وأشياءه وطقوسه يندرج ضمن سيرورة تواصلية متعدّدة المظاهر والوجود والتجليّ إلى الحد الذي يجعل الثقافة في كليتها سيرورة تواصلية دائمة. وفي جميع الحالات ثمة ترابط وثيق بين مظهري الوجود الإنساني الثقافي والاتصالي: "فهما معا يشكّلان جهتي نظر وطريقتين لتمثل التفاعل الإنساني المنتظم والمبين، فالتركيز يكون في الثقافة على البنية، أمّا في الاتصال فإنّه يتعلّق بالسيرورة".<sup>1</sup>

وما تعرفه البشرية في العقود الأخيرة كاف لتفسير مجموعة كبيرة من الظواهر المرتبطة بالاتصال، ما يعوقه وما يوفّر له شروط التحقق، وما يحوله إلى أداة للتضليل. فعلى الرغم ممّا تبدو عليه الأمور في الظاهر، فإنّ ادّعاءات العولمة القدرة على تجاوز كل الهويات لا يمكن أن تكذبها إلاّ حالات الاتصال ذاتها، فلا يمكن تحقيق هذه العولمة إلاّ من خلال القدرة على استيعاب التلوين الثقافي المحلي كأحد ضروب تحقق العولمة في الشكل وفي الجوهر. فمن خصائص الاتصال في عصرنا هذا اشتراطه ما تؤدّ العولمة تحطيمه: الهوية، " فلقد كانت هذه الهوية فيما مضى عائقاً أمام الاتصال، أمّا الآن فهي شرطه، فكلمّا ازداد النشاط الاتصالي، ازداد احترام النّاس للهويات. إنّ الشعوب تتشبّث بالهوية والتواصل في

<sup>1</sup> Winkin, Y. (2001), *Anthropologie de communication*, Paris, éditions Seuil, p.72

الوقت ذاته، فهما دعامتا الحداثة"<sup>2</sup>. وخارج هاتين الدعامتين لا يمكن الحديث عن إنسانية تحتفي بالاختلاف قدر احتفائها بالوحدة، كما سنوضحه في ثنايا الفضاء الاتصالي بوصفه خطاب لا يقف عند حدود الاتصالات كتقنية مفرغة من أي مضمون.

## 1. الفضاء الاتصالي: الخطاب والثقافة

يحتلّ الفضاء الاتصالي *Espace Médiatique*، كمفهوم وخطاب خاص موقعا مميّزا في الدراسات الإعلامية المعاصرة، فقد حاول الكثير من الباحثين، من خلال مفهوم الفضاء هذا، إدراك سرّ الترابط الاجتماعي وكنه السيرورة التي من خلالها يتعلّم الإنسان كيف ينتمي إلى ثقافة مجتمع ما ويصبح جزءا منها من خلال سلسلة من المظاهر والرموز الاتصالية<sup>3</sup>. وعلى هذا الأساس، فإنّ دراسة الفضاء الاتصالي يجب أن ينظر إليها من زوايا متعدّدة، سواء من حيث تصنيف الظواهر الاتصالية، أو تحديد أشكال تجلياتها، أو من حيث الإحالة على التصورات النظرية التي حاولت، من منطلقات ابستمولوجية مختلفة تحديد حجم الاتصال وعمقه ومناطقه ووظائفه وخصوصياته<sup>4</sup>.

وتأسيسا على ما سبق، يمكن الجزم بأنّ الفضاء الاتصالي هو جزئية أساسية في المشهد الثقافي وفي خدمة المجتمع وفي تكريس التفاعل السليم لكل مكونات الفضاء العمومي<sup>5</sup>. وبحكم أنّ دائرة الفضاء الاتصالي لصيقة بما هو متاح للفضاء العمومي من حريات التعبير فإنّه بالضرورة سيتأثر المشهد الاتصالي كجزء من الفضاء العام بالقيود التي ستفرض عليه. في هذا السياق، ومن أجل المساهمة في حل هذه الإشكالية سعت بعض الدول التي تنتمي إلى النموذج الليبرالي من خلال فهمها لكيفية تسيير الاتصال إلى أفراد مكانة هامة

<sup>2</sup> Woltion, D. (2005), *Sauver la Communication*, Paris, Flammarion, p.20

<sup>3</sup> Carbalon, J.A. (1998), *Théorie des Processus de la Communication*, Paris, éditions Armand Colin, p. 21.

<sup>4</sup> Mattelard, A. (1998), *La communication – monde, histoire des idées et des stratégies*, Paris, La découverte, p. 27.

<sup>5</sup> *Ibid*, p. 27.

لدور الجمعيات والنقابات المهنية ومؤسسات المجتمع المدني والجمهور كعناصر فاعلة في التشريع والهيكلية والرقابة<sup>6</sup>.

إنّ الفضاء الاتصالي إذن هو الحيز الذي تتحدّد فيه جغرافية التيارات الإعلامية La géographie des Courants Médiatiques لترسم الملامح العامة والدائرة الممثلة لمشهد اتصالي ما<sup>7</sup>. ولا يمكن التعاطي مع مفهوم الفضاء الاتصالي باعتباره قيمة تدلّ على تجانس خريطة التدفقات Cartographie des Flux الإعلامية فحسب بل لابدّ أن ينظر إليه باعتباره سياقاً ثقافياً واجتماعياً يحمل الكثير من الاتجاهات الإعلامية الهجينة<sup>8</sup> Tendances Hybrides وهو ما يؤسس لمفارقات واختلافات قد تطلّ المشهد الإعلامي المتشابه كما هو الحال بالنسبة للفضاء الاتصالي المغربي.

## 2. الفضاء الاتصالي المغربي وإشكالية مثاقفة العولمة

اصطدم المشهد الاتصالي المغربي، على غرار بعض الأنظمة الإعلامية العالمية بجملة من الإشكالات التقنية والمعرفية، تمثلت على وجه الخصوص في كيفية التصدّي لبعض المتغيرات الجديدة، كتعدّد الاختيارات عندما يتعلق الأمر بالبرامج السمعية – البصرية Multiplication des choix des programmes audiovisuels التي توفرها مقترحات الفضائيات المختلفة، أو ضروب الربط المتباينة Interconnexions التي تضمنها خدمات الشبكة العنكبوتية، والتي توفر للأفراد تبديلاً حراً للمعلومة وإمكانيات جديدة للاتصال تتجاوز كلية الحدود والفضاءات التقليدية المعهودة<sup>9</sup> Les espaces Traditionnels.

وقد يكون هذا المعطى التدويلي Internationalisée الجديد لعرض الصور والمعلومات يسير في وفاق مع اختيارات دول المنطقة المغربية الرامية إلى تبني نهج الانفتاح الاقتصادي بما يفرضه من

<sup>6</sup> Mattelard, A. (1996), *La mondialisation de la communication*, Paris, PUF, p. 34.

<sup>7</sup> Morley, D. et Kevin, R. (1997), *Spaces of identity, Global Media- Electronic Landscapes and cultural Boundaries*, Londres, Routledge, p. 48.

<sup>8</sup> *Ibid*, p. 50.

<sup>9</sup> Chevaldonné, F. (1989), *La Communication Inégale*, Paris, éditions du CNRS, Paris, p. 25.

إملاءات عالمية (المنظمة الدولية للتجارة)، أو التزامات دولية خارجية أو مختلف أنواع الشراكة بين دول المنطقة Intro Régionaux (مسار برشلونة، اتفاقيات التبادل الحر مع الاتحاد الأوروبي، اتحاد المغرب العربي ...). وهي كلها إكراهات تستوجب ضرورة تحرير سير المعلومة، وتبني إيديولوجية واضحة المعالم في كيفية التعامل مع الوسيط الإعلامي الحديث كوسيط اتصالي ثقافي في المستوى الأول.

ويمكن القول في هذا السياق أنّ تعامل دول المغرب العربي مع التقنية الاتصالية الحديثة قد عطل مجالات تلقّي الوسيلة والرسالة معا وعطل معها تبلور فكر اتصالي يبحث في التجليات الثقافية والسوسيولوجية للآلة والرسالة<sup>10</sup>. فتقدّم البحوث والاهتمام بالتأثيرات الاجتماعية والثقافية للوسيط الاتصالي يتأكد أكثر عندما توجد مساهمة تقنية في بلورة الآلة. وبما أنّ دول المغرب العربي مستهلكة للتقنية وغير مساهمة لا في نشأتها ولا في تطوير نجاعتها التكنولوجية أو الإلكترونية فإنّ التعامل يبقى دائما مع الوسيلة الاتصالية في نسختها الأصلية وليس في نسخها المتجددة التي تستلزم مثاقفة أبعادها الخدمائية المستحدثة<sup>11</sup>. فمنذ التسعينات، ومع بداية المد الإعلامي العالمي، انشطر المشهد الاتصالي إلى عالمين متجاذبين، لم تعد سيادة الإعلام وفقه حبيسة الإذاعة والتلفزيون والصحيفة بل أنّ وسائل جديدة لنقل المعلومة والخبر والآراء أصبحت تشقّ طريقها بسرعة فائقة نحو التآلق، إنّها تكنولوجيات الاتصال الحديثة وكل ما يمكن أن تفرزه من بيئة حديثة للاتصال (أنترنت، هاتف خلوي، بث فضائي رقمي ونشر إلكتروني ...). أصبح شيوع هذه الوسائط واستهلاكها علامة غير قابلة للشك في ميلاد عصر جديد أطلق عليه البعض عصر تكنولوجيا المعلومات، الإعلام الجديد، الاتصال الرقمي، العالم الافتراضي، الاتصال الإلكتروني أو مجتمع المعرفة، وهي كلّها تعبيرات عن ظاهرة إنسانية تقنية اتصالية واحدة.

<sup>10</sup> Mignot-Lefebvre, Y. (1999), « Transferts des Technologies de la communication et développement », in Revue *Tiers Monde*, N° 113, p. 553.

<sup>11</sup> *Ibid*, p. 555.

تتميز تكنولوجيا الاتصال الحديث عن ما سبقها في الموروث الاتصالي القديم بميلاد شبكة يمكن من خلالها إرسال من نقطة إلى نقطة أخرى مجموعة من الرموز، ويمكن أن تكون في نفس الوقت مكتوبة ومسموعة ومرئية. وقد تزامن ميلاد هذه الثورة الاتصالية مع متغيرات استراتيجية سياسية واقتصادية بالغة الأهمية يمكن تلخيصها في ظاهرة العولمة وانفراد القطب الغربي بقيادة العالم سياسياً وثقافياً كنموذج معرفي وفكري متماسك. وجدت وسائل الاتصال هذه في العولمة قاطرة لسرعة انتشارها، ووجدت العولمة في تكنولوجيات الاتصال سلاحاً تتسلل به إلى أصقاع الأرض متسترة وراء قيمة إنسانية كبرى اسمها: الاتصال أو التواصل بين الشعوب والبشر والحضارات والثقافات.<sup>12</sup>

يبدو المشهد - ظاهرياً ونسبياً - متوافقاً مع الإرث التاريخي لوسائل الاتصال التقليدية (تلفزيون، إذاعة، صحافة)، غير أن الاتصال الحديث قد استوعب فأدمج فأوعى ذلك التداخل إلى ميلاد شركات متعددة الجنسيات تأخذ من الاتصال الإلكتروني والفضائي والرقمي حقلاً اقتصادياً خصباً للهيمنة<sup>13</sup>. لقد بات اندماج الوسيلة مقدّمة لاندماج شركات الكابل مع التلفزيون والتلفزيون مع البث الفضائي، والبث الفضائي مع الهاتف الخليوي، والهاتف الخليوي مع تعدّد الوسائط والنشر الإلكتروني<sup>14</sup>. وأمام زوال كل الحواجز الاتصالية في العالم ظهرت علامات عدم التكافؤ بين العالم المصنّع المنتج للتكنولوجية والشعوب المستهلكة للتقنية، وهو ما أفرز من الناحية المعرفية ظهور مصطلح الفجوة الرقمية بين الدول كصيحة فرع من حدة الفوارق في البنى التحتية في قطاع الاتصالات وتدفق المعلومة بشكل متوازن بين الأمم والثقافات.<sup>15</sup>

<sup>12</sup> Breton, P. et Proulx, S. (2002), *L'explosion de la communication à l'aube de XXI<sup>e</sup> siècle*, Paris, La découverte, p. 400.

<sup>13</sup> أشرف صلاح الدين (2003)، الأنترنت... عالم متغير، القاهرة، مركز الحضارة العربية، الطبعة الأولى، ص. 47.

<sup>14</sup> Flechy, P. (1991), «La Question de la technique dans les recherches sur la communication», in *Revue Réseaux*, N° 50.

<sup>15</sup> المصمودي، مصطفى (2001)، النظام الإعلامي الجديد وإشكالية البث الرقمي، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ص. 47.

### 3. الفضاء الاتصالي المغربي بين فكرة المقاومة وتوحيد الرؤية

تتأثر الفضاءات العمومية بعضها ببعض جزئياً، وهو ما يعني أنّ ملامح المشهد الاتصالي المغربي لم تتحدّد بمنأى عن التحولات السياسية. فقد اتحدت دول المنطقة المغربية في تسيير الحقل السياسي منتهجة خطأ واحداً واستراتيجية جامعة قوامها اللجوء إلى سياسة "الإكراه المحتوم" *La contrainte nécessaire*، والتي تمّ بمقتضاها تبرير بعض السياسات الأخرى كبناء الدولة الأمة *L'état nation*، محاربة التخلف وتحقيق التنمية... وغيرها من الأهداف التي سطّرت على المديين البعيد والقريب<sup>16</sup>.

والثابت في تاريخ المنطقة المغربية أنّ هناك تقاليد جامعة *Traditions Centralisatrices* ومظاهر إرث جديدة ساهمت في احتكار الوسيلة الإعلامية البارزة والثقيلة: التلفزيون، وأدّت بذلك إلى احتكار المجال السمعي - البصري برمته، حيث أصبح أداة في يد السلطة لخدمة إعلام بروتوكولي (رئاسي أو حكومي) لا غير، ورغم ما تدّعيه هذه الدول من مساعي لإعادة هيكلة المشهد الاتصالي والإعلامي ورغم ما اقترح في هذا المجال من تعدّدية في مظاهر البث التلفزيوني، إلا أنّ الفكر القيادي المغربي لم يستطع الرفع معرفياً من شأن فكرة الاتصال أو ما يطلق عليه هيرماس بالتواصل الناجع الذي يفترض شرط تجاوز إشكالية وعي الحرية<sup>17</sup> وشيوع ملكية التقنية الاتصالية وحرية التعبير كمقوم أساسي للفكر الديمقراطي<sup>18</sup>.

إنّ تخلف الديمقراطية وممارستها في المغرب العربي لا يعود فقط إلى حصرها في بوتقة الشعار السياسي، بل أنّ التخلف الديمقراطي يعود أيضاً إلى فهم أوعية الديمقراطية ووسائلها. يعدّ رفض الوسيط

<sup>16</sup> Miège, B. (1990), « Les industries audiovisuelles : Le renforcement de la domination », in *Revue Tiers monde*, N° 114, p. 543.

<sup>17</sup> النقري، معز (2006)، إشكالية التواصل في فلسفة هيرماس، بيروت، الدار العربية للعلوم والمركز الثقافي العربي، ص. 103

<sup>18</sup> Pige, F. (1986), *Radiodiffusion et télévision au Maghreb*, Paris, FNSP, p. 2.

رفضاً لوعاء المعرفة، والذي يطلق عليه في المجتمعات الحديثة بتقنيات الإعلام والاتصال<sup>19</sup>. يؤدي هذا الرفض إلى نبذ انتشار الفكر وشيوعه وتداوله لأنّ التداول على السلطة، وهو العمود الفقري للديمقراطية بالمفهوم الحديث، ما هو إلاّ تداول على أفكار وتصورات ومناهج في كيفية إدارة الشأن العام بعد أن يقول الشعب كلمته في من ينوبه عبر الاقتراع. ولا قيمة للاقتراع الذي يفضي إلى تداول السلطات والرؤساء والبرلمانات والحكومات إذا لم تتوفر معركة فكرية عادلة على واجهة وسائل الإعلام التي هي الفيصل في تقريب صورة كل طرف سياسي إلى المواطن مهما كانت خلفيته الثقافية عن مشكلات الشأن العام<sup>20</sup>. وهكذا فإنّ الإعلام والاتصال الذي لا يساهم في تحديد أولويات المجتمع السياسية والثقافية والاقتصادية لا يمكنه أن يكون فاعلاً في أي مشروع يسعى لتداول سلمي على السلطة كنتيجة حتمية لتداول أهم التصورات حول أسلوب إدارة الشأن العام بالاعتماد على الرأي العام الذي تسهم وسائل الإعلام الحرة في بلورته بشكل محايد وموضوعي بعيداً عن أي توظيف اقتصادي أو سياسي<sup>21</sup>.

وبانفتاح دول المغرب العربي على التلفزيونات العابرة للحدود les télévisions transfrontières بطريقة هيرتزنية Hertzienne وفضائية، وشيوع خدمات الأنترنت واندماج الوسائط، اصطدمت حكومات هذه الدول بإشكالية أسس وآليات مراقبة واحتكار هذا البث الإعلامي الجديد الذي فسح هامشاً كبيراً لحرية التعبير وتداول المعلومات دون عراقيل أو قيود، وبسرعة فائقة تكاد تكون في الزمن الحقيقي لوقوع الأحداث<sup>22</sup>. ونظراً لما أتاحتها هذه الوسائط الجديدة من تحولات سريعة وعميقة في المشهد الاتصالي المغربي، سعت حكومات المنطقة إلى اتخاذ إجراءات وتدابير ضابطة des mesures restrictives

<sup>19</sup> فرانك كيلش (2000)، ثورة الأنفوميديا: الوسائط المعلوماتية وكيف تغيّر عالمنا وحياتنا، ترجمة: حسام الدين زكرياء، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ص. 317.

<sup>20</sup> Boy-Barret, O. (1999), « Media Imperialism: Towards an international Framwork for analysis of Media systems », in Curran janes. Curvitch Macheal (Eds), Londres, Mass communication and society, p. 103.

<sup>21</sup> Ibid, p. 105.

<sup>22</sup> Wolton, D. (1996), *War game, L'information et à la guerre*, Paris, Flammarion, p. 170



لتنظيم ومراقبة هذه التحولات المعقدة التي طرأت على الممارسة الإعلامية بكاملها. وهكذا تم طرح سجلات جديدة لأخلاقيات وضوابط المهنة<sup>23</sup>، منها ما يتعلق بقانون امتلاك الصحن اللاقط Antenne Parabolique أو شروط الولوج والإبحار على الشبكة العنكبوتية سيما في بعض مراحل وسياقات التوتر Contextes de tension (كمحاربة الحركات الإسلامية وما تقتضيه من حرص على الأمن الداخلي لهذه الدول، أو بعض الأزمات المرتبطة بالتحول الديمقراطي الذي تنشده شعوب المنطقة العربية والمغربية ...).

وهكذا وجدت الحكومات المغربية نفسها أمام تحدي كبير يتمثل في إشكالية أخلاقيات وآداب المهنة في ظل قدرات الوسائط الرقمية التي أضحت منبرا للإعلام الرسمي وغير الرسمي في نفس الوقت، وأصبح معها التحكم في التدفق الإعلامي مسألة في غاية الصعوبة إن لم تكن واقعا مستحيلا<sup>24</sup>. وليس غريبا أن تكون حرية التعبير وتداول المعلومات، من المطالب الأساسية لكل فرد وربما هذا ما يفسر قوة الطلب الاجتماعي والشغف الجماهيري المغربي L'engouement des publics Maghrébins بهذه الوسائط التكنولوجية الحديثة وبما تقترحه من خدمات وإشباعات Satisfactions متميزة<sup>25</sup>.

ولأن اندماج الوسائط أو التعدد في الفضاء الإعلامي ما هو إلا تطور لتكنولوجيات الاتصال الحديثة التي تعتمد على تخصصات صناعية قائمة انطلاقا من مؤسسات وقواعد تسيير ثقافة مهنية متجذرة تاريخيا في قطاعات مثل الاتصالات والسمعي البصري وأجهزة الكمبيوتر<sup>26</sup>، ولأن بلدان المغرب العربي لم تصل إلى مستوى مقاربة ظاهرة الملتيميديا Multimédia الذائعة الصيت<sup>27</sup>، فإنها لجأت

<sup>23</sup> Serge, A. (1988), *Le marché de l'image au Maghreb: tendances et perspectives*, Montpellier, Idate, p. 11.

<sup>24</sup> Reynaert, F. (1998), « Au pays du bonheur hors la loi », in *Revue Le nouvel observateur*, N° 1732, p. 67.

<sup>25</sup> Serge, A., *Le marché de l'image au Maghreb*, op.cit., p. 15

<sup>26</sup> بريستون، غراك (2003)، تقنيات البث والاتصالات اللاسلكية، ترجمة مركز التعريب والترجمة، بيروت، الدار العربية للعلوم، ص. 64.

<sup>27</sup> Chevaldonné, F. (2007), *Les structures des Multimédias au Maghreb*, Paris, Dunod, p. 73.

إلى بعض الحلول الترقيعية لتجاوز مشكلة مسامية الحدود الإلكترونية *les parasites des frontières électriques*، متوسلة بجملة من الإجراءات العرضية كتبني استراتيجيات التنوع السطحي للقنوات التلفزيونية بما يحفظ لها سلطة التحكم في المضمون الإعلامي ويمكنها من تلبية بعض التطلعات الإثنوغرافية (قنوات للأقليات)، أو الدينية (قنوات للقرآن الكريم)... وغيرها من قنوات خدماتية وترفيهية، كما سعت من الناحية الاتصالية إلى إعادة تشكيل خريطة الفضاء الإعلامي من خلال مجابهة بعض مضامين القنوات الفضائية التي تمثل نموذج للإعلام المتنافر وذلك من خلال تدعيم شبكاتها البرمجية بحصص جديدة أكثر ترفيها *Plus distrayantes* كالكاميرا المخفية *la caméra cachée* أو سلسلات أوروبية مسلية *Des vidéo gags*. ولئن كانت هذه التصورات تساهم في بلورة تطلعات المشاهد المغربي إلا أنها على المستوى القيمي لم تكن تبلور خطابا يعبر عن انشغالات هذا الفرد في تلمس ذاتيته وطموحاته الحقيقية<sup>28</sup>.

#### 4. الفضاء الاتصالي المغربي ورهانات تجاوز المقاربة النمطية

يعدّ الموروث الإعلامي أمرا مركزيا في صياغة المقاربة الملائمة لتسيير الحقل الإعلامي بما يتوافق والخصوصية الثقافية والسياسية لكل نظام على حدة<sup>29</sup>، وهو الطرح الذي يعزز تفرّد كل دولة مغربية بمنهجية خاصة في التصدي للإعلام المتنافر *L'information dissonante* التي اختصت بها بعض القنوات الإخبارية، كالجزيرة القطرية التي مثلت بالنسبة لتونس ومنذ ربيع سنة 2000 وعاء إعلاميا ضروريا لتغطية العجز وإخفاء النقائص *Pallier les carences* التي كانت تشوب الإعلام الوطني<sup>30</sup> كما ساهمت قناة "المستقلة"، التي شرعت في بث برامجها ابتداء من سنة 1999 عبر القمر الصناعي - عربسات - في فتح مجال حرية التعبير من خلال بعض

<sup>28</sup> *Ibid*, p.75.

<sup>29</sup> Chouikha, L. (1997), *L'information au Maghreb*, Tunis, Cérés Production, p. 94.

<sup>30</sup> Ferjani, R. (1999) « Usages des nouvelles technologies de l'information et de la communication en Tunisie », in *Revue Tunisienne de Communication*, N°32, Juillet - Décembre, p. 25.

الحصص الحوارية Les Talk.shows أو الحصص الإخبارية التي تعنى بالشأن المغربي كحصة: المغرب الكبير Le Grand Maghreb التي كانت تركّز بالدرجة الأولى على الشأن التونسي بحكم جنسية مؤسس القناة الهاشمي حمدي. كما اعتبرت هذه القناة أيضا منبرا لتدخّل بعض الشخصيات المعارضة للأنظمة المغاربية والعربية عامة، وهو ما أجبر النظام التونسي على ضرورة معالجة هذا الوضع، باقتراح برامج تستقطب الجمهور كاقترح برنامج منوع على القناة السابعة Canal7، يتزامن وفترة بث بعض الحصص الهامة في المستقلّة، وتدعيم هذا النوع من البرامج بأسئلة في متناول الجمهور يحصل على إثرها الفائز على هدية مغربية (سيارة الأسبوع)<sup>31</sup>.

أمّا في الجزائر فقد سعى النظام السياسي إلى المراهنة على عامل اللامبالاة وتجاهل بعض مضامين قنوات الإعلام المتنافر كالجزيرة أو العربية أو الحوار، خاصّة وأنها قنوات تستقطب غالبية الجمهور الجزائري<sup>32</sup> لما تقدّمه من بعض الحقائق وكشف لبعض الملفّات، الأمر الذي يفسّر الإقبال الكبير على بعض نماذج Les talk shows وما تتضمّنه من حوارات راهنة Débats d'actualité كما هو الشأن بالنسبة لحصة "الرأي الآخر" (L'autre Opinion) أو "الاتجاه المعاكس" (Le Courant Opposé) الذي يسائل ردود فعل المعارضة الجزائرية في الخارج إزاء القضايا المصيرية الوطنية<sup>33</sup>.

وفي ظل حقبة الإعلام الرقمي الذي أثّرت فيه الأنترنت بشكل واضح على إعادة تكوين السياسة الإعلامية وعلى التدشين لمؤسسة فردية في الاتصال (مواقع الواب المتخصصة، الصحف الإلكترونية، الدردشة، الحوار ...) أو المواقع الاجتماعية Face Book ... وغيرها من مظاهر وإفرازات الاتصال الرقمي لم تجد الحكومة بداً من إعادة تنظيم ملامح هذا الفضاء الإعلامي الجديد واستتجدت في المقابل ببعض الإيديولوجيات الموازية كالخطاب المسجدي، وهكذا تحولت

<sup>31</sup> Mattelart, T. (2008), *La mondialisation des medias contre la censure*, Paris, INA, Medias Recherches, p.174

<sup>32</sup> Abassa, Mohamed (1989), « Ciel les satellites », in *Revue Revolution Africaine*, Novembre.

<sup>33</sup> Mattelart, T. (2006), *Tiers monde et audiovisuel sans frontières*, Paris, éditions Payot, p. 108.

المساجد من فلك عمومي Sphère Publique خاص بالعبادة إلى فضاء لتمرير رسائل متباعدة Message Divergents في خدمة السلطة<sup>34</sup>.

## 5. نحو سوسولوجيا مجتمع رقمي جديد

هكذا تكون تكنولوجيا الإعلام والاتصال قد أسهمت في ظهور اجتماعيات جديدة De nouvelle Sociabilités أكدت حقيقة عدم عزل عنصر الإنسان ككائن ثقافي ومحمور مفصلي في عملية الاتصال، ولعلّ هذه هي الحقيقة الجوهرية التي غابت عن الحكومات المغاربية في محاولة تنظيم الفضاء الاتصالي وبسط السيطرة عليه.

لقد بلغ التطور التقني ذروته في السنوات الأخيرة، ورافقه تغيرات أخرى أعطت مفهوم التلقي أبعادا جديدة أهمها: الوجود اللامادي واللامحدودية في الزمن والمكان للجمهور والذي أصبح يطلق عليه عالم ما بعد الجمهور<sup>35</sup> Post- Audience world حيث أضافت هذه التكنولوجيات تشكيلة متنوعة من العناصر المساهمة في تكوين مفهوم الجمهور لم تكن متوفرة في أنظمة الاتصال السابق، ذلك أنّ الرقمية لم تمنح حرية الاختيار المطلق للمتلقي فحسب، ولكنها قضت على العديد من القيود التي فرضتها وسائل الإعلام التقليدية. ويتوقع الخبراء أنّ نظام الاتصال الرقمي سيوفر بعد تعميمه محليا إقليميا ودوليا القدرة على الإبحار في الأزمنة والأمكنة المختلفة وسوف يوفر للأفراد القدرة على التواصل اللامحدود، الأمر الذي يسهم في تشكيل رأي عام موضوعي بعيدا عن الإكراهات ويؤسس لتسيير وإدارة تعبئة الجهود بغية الحسم في بعض القضايا المصيرية، ولعلّ التحول الديمقراطي الذي تشهده بعض البلدان كتونس ومصر خير مثال على ذلك.

وفي الأخير، فإنّ الاتصال ومعه الإعلام في المنطقة المغاربية في مفترق طرق بين الديمقراطية والرأسمالية، بين السوق الثقافية الاستهلاكية والخصوصية الثقافية المحلية، بين الرأي العام العفوي والرأي العام المعلن المصطنع، بين قضايا الشأن الداخلي واشتداد

<sup>34</sup> Madani, L. (1999), « Les télévisions étrangères par satellite en Algérie: Formation des audiences et des messages », in Revue Tiers Monde, N° 165, p. 312-320.

<sup>35</sup> Dayan, D. (2007), *Les Mystères de la réception*, Paris, éditions Gallimard, p. 304.

عود الليبرالية والاحتكار، بين الهوية الوطنية والإمبريالية الثقافية، بين كل هذه المتغيرات يقع الاتصال الرقمي الافتراضي وتقع معه صورة الفضاء الاتصالي المغربي والأبعاد الغامضة لسوسيولوجيا المجتمع الرقمي.

## عناصر بيبليوغرافية

### باللغة العربية

المصمودي، مصطفى (2001) النظام الإعلامي الجديد وإشكالية البث الرقمي، الكويت، سلسلة عالم المعرفة.  
أشرف صلاح الدين (2003)، الأنترنت... عالم متغير، القاهرة، مركز الحضارة العربية، الطبعة الأولى.  
النقري، معز (2006)، إشكالية التواصل في فلسفة هبرماس، بيروت، الدار العربية للعلوم والمركز الثقافي العربي.  
بريستون، غراك (2003)، تقنيات البث والاتصالات اللاسلكية، ترجمة مركز التعريب والترجمة، بيروت، الدار العربية للعلوم.  
فرانك كيلش (2000)، ثورة الأنفوميديا: الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك، ترجمة: حسام الدين زكرياء، الكويت، سلسلة عالم المعرفة.

### باللغة الفرنسية

Abassa, Mohamed (1989), « Ciel les satellites », in *Revue Révolution Africaine*, Novembre.

Mattelard, Armand (1996), *La mondialisation de la communication*, Paris, PUF.

Breton, Philippe et Proulx, Serge (2002), *L'explosion de la communication à l'aube de XXI<sup>e</sup> siècle*, Paris, La découverte

Carbalon, Jean Antoine (1998), *Théorie des Processus de la Communication*, Paris, éditions Armand Colin.

Chevaldonné, François (2007), *Les structures des Multimédias au Maghreb*, Paris, Dunod

Chevaldonné, François (1989), *La Communication Inégale*, Paris, éditions du CNRS

Chouikha, Larbi (1997), *L'information au Maghreb*, Tunis, Cérés Production

Wolton, Dominique (1996), *War game, L'information et à la guerre*, Paris, Flammarion

Mattelart, Triston (2008), *La mondialisation des medias contre la censure*, Paris, INA, Medias Recherches

Mattelart, Triston (2006), *Tiers monde et audiovisuel sans frontières*, Paris, éditions Payot

Mattelart, Armand (1998), *La communication – monde, histoire des idées et des stratégies*, Paris, La découverte

Morley, David et Robin, Kevin (1997), *Spaces of identity, Global Media–Electronic Landscapes and cultural Boundaries*, Londres, Routledge.

Pige François (1986) *Radiodiffusion et télévision au Maghreb*, Paris, FNNSP

Reynaert, François (1998), « au pays du bonheur hors la loi », in *Revue Le nouvel observateur*, N° 1732, 1998.

Adda, Serge (1988), *Le marché de l'image au Maghreb : tendances et perspectives*, Montpellier, Idiate.

Winkin, Yves (2001), *Anthropologie de communication*, Paris, édition Seuil

Woltion, Dominique (2005), *Sauver la Communication*, Paris, Flammarion

## مقالات في مجلات

Boy-Barret, Oliver (1999), « Media Imperialism: Towards an international Framwork for analysis of Media systems», in Curran Janes. Curvitch Macheal (Eds), Londres, Mass communication and society.

Ferjani, Riadh (1999), « Usages des nouvelles technologies de l'information et de la communication en Tunisie », in *Revue Tunisienne de Communication*, N°32, Juillet – Décembre.

Flechy, Patrice (1991), « La Question de la technique dans les recherches sur la communication », in *Revue Réseaux*, N° 50.

Madani, Lotfi (1999), « Les télévisions étrangères par satellite en Algérie : Formation des audiences et des messages », in *Revue Tiers Monde*, N° 165.

Mignot-Lefebvre, Yvonne (1999), « Transferts des Technologies de la communication et développement », in *Revue Tiers Monde*, N° 113.

Miège, Bernard (1990), « Les industries audiovisuelles : Le renforcement de la domination », in *Revue Tiers monde*, N° 114.